

زيف الرأي العام العربي!

19-10-2019 د. ميثاق بيات أضيفي

بادئ ذي بدء لن أخلج ولن أجمال فإنا اشك واشكك بالفرضية المشاعة حول إن كل استطلاع للرأي العربي العام يمكن أن يكون له معنى أو أية مصداقية، وبعبارة أخرى اشكك في حقيقة وجود إنتاجا للرأي العربي أو بإمكانية التعبير عنه أو حتى بإتاحة ذلك للجميع، وأرى أنه من الممكن إثبات أن في بال الحكام جميع الآراء العربية العامة ليست مهمة على الإطلاق، وأن حقيقة جمع الآراء باستطلاعات الرأي هي ليست أكثر من إنتاج أعمال فنية مزيفة لا معنى لها.

وببساطة ليست هناك فرضية صريحة حول وجود إجماع حول القضايا، وغالباً ما يتم تحدي استطلاعات الرأي العام بطابع السؤال عن تمثيلية العينات، وأعتقد أنه نظراً للحالة المأساوية الراهنة للواقع العربي وكذلك للوسائل التي تستخدمها برامج تلك الاستطلاعات فإن هذا الاعتراض لا أساس له من الصحة لأنه لا يتم إجراء العمليات بصدق بحيث يتم طرح الأسئلة الكلاسيكية بطرق مائعة وماكرة أو استخدام حيل الزيف في صياغتها، وغالباً ما يتبين أن الإجابة مشتقة من شكل بناء الأسئلة وحتى الإشكاليات الخاصة التي يقام بها ذلك النوع من التنظيم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالظاهرة وتخضع لنوع معين من النظام الاجتماعي الوالي والتابع والمنتفع من الأنظمة الحاكمة.

بعالمنا العربي تخضع الإشكاليات التي تقترحها دراسات الرأي العام للمصالح السياسية المرتبطة بإبراز حكمة وعبقرية الحاكم، وبذلك سيمحق بشدة كل من معنى للأسئلة وللإجابات ويفضح هدف نشر النتائج.

إن استطلاعات الرأي العام في أشكاله الحالية هو أداة حمقاء للعمل السياسي، ولعل أهم وظائفها غرس الوهم القائل بأن هناك رأي عام باعتباره حتمية يتم الحصول عليها فقط من خلال إضافة آراء فردية، الغرض منها إخفاء حقيقة بؤس ويأس وضياح الرأي الشعبي العام، وعبره تأمل الأنظمة الحاكمة للتأثير الأساسي على تسطير فكرة وجود رأي داعم لها بالإجماع وذلك محاولة منها لإضفاء الشرعية على سياساتها، ولإحكام خروج نتائج ترضيها فهي تعتمد على وضع وفرض فلسفة خفية

للتصويت على استطلاعات الرأي العام وإذا ألقينا نظرة عن قرب فسنجد أن النسبة المئوية لأولئك الذين لا يجيبون على الاستبيانات أعلى بشكل عام بين الإتياع والمواليين مقارنة بالمشكوك في ولائهم لها.

وأن الفرق في هذا الصدد هو الأكثر أهمية إذ أن الأسئلة الأكثر طرحاً تكون سياسية وكلما كانت مسألة الاستبيان أقرب إلى مشاكل المعرفة والإدراك ازداد الفرق في حصة "غير مجاب" بين الأكثر تعليماً والأقل تعليماً وبين الأقل أو الأكثر خضوعاً، وكلما تناولت الاستطلاعات قضايا النزاع وعقدة التناقضات الدينية والوطنية كلما زاد التركيز على السؤال عن أي فئة معينة من الناس تستطلع، وكلما ازدادوا عدداً سيجمعون خوفاً ورعباً على حصة لم تتم الإجابة، لذلك لن يقدم الاستطلاع سوى تحليل بسيط للإحصائيات وستبرز به بقوة حصة "بدون إجابة"، فيتم تعريف المعلومات على أنها الاحتمالية فيما يتعلق بتلك الفئة للحصول على رأي وكاحتمال مشروط للحصول على رأي مؤيد للنظام الحاكم.

إن أحد أكثر الآثار الضارة لدراسة الرأي العربي العام هو بالتحديد أن الناس مطالبين بالإجابة على أسئلة لم يطلبوها هم أنفسهم أو أنهم يخشون ويتهربون من الإجابة عليها ولناخذ على سبيل المثال أسئلة تركز على القضايا الأخلاقية سواء كانت تتعلق بصرامة الآباء أو العلاقات بين المدرسين أو الطلاب أو التوجيه التربوي أو الدراسي وما شابه، في كثير من الأحيان ينظر إليها الناس على أنها مشاكل أخلاقية وكلما انخفض مستوى هؤلاء الناس في التسلسل الهرمي الاجتماعي كلما انخفضت فاعلية الأسئلة، وقد تكون تلك الأسئلة تطرح نفسها كقضايا سياسية للناس حين يكون الاستطلاع للطبقات العليا فتتحول الاستجابات الأخلاقية إلى استجابات سياسية تشيد بالنظام السياسي وتمجد بالزعيم الحاكم وأخلاقياته وذلك بمجرد فرض مستويات ووجهات نظر لطبقات عليا والتي دوماً ما تكون من اشد الطبقات ولاءً للأنظمة السياسية للمنافع المادية والتسلطية التي كسبتها بوجودها.

بعالمنا العربي وعلى النقيض من كل العوالم الأخرى فيتم تصميم الاستبيانات بطريقة تجعل الناس لا يسألون ولا يفكرون أو حتى لا يعتبرون أنفسهم مشاركين أو مهتمين في السياسة أو قريبين منها، وذلك يكشف عن اختلاف خطير للغاية في فن نوعية الاعتماد على نوع المجموعة الاجتماعية إذ إن الشرط الأول للحصول على إجابة ملائمة لمسألة سياسية هو القدرة على تمثيلها على وجه التحديد

والآاني هو القءرة على آطبقه على فئات سباسة بآة والآى قد آكون بءورها ملائمة إلى آء ما أكثر أو أقل آطوراً، وإن كآة الأآوبة الآى آعآبر إآابات سباسة آآم فى الواقع وفقاً للآبقة العرقفة آفر إن ذلك لفس من المسآآفل آطبقه فى عالمنا العربف إنما الآق نقوله انه لا فمكننا أصلا الآفآفر بوءوءه أو آآى الآلم بعمله!!! وبالآالى قد آآآسب آلك الاسآطلاعات المآزفة معنف مآآلفا آماما عنءما فآم عرضها وبآآها وآآللها على أوضاع المآال والآفا السباسة.

فى رأف فنبآى الآشآفك فى أهمفة الإآابات على معآمها لان السلسلة الأولى منها آسفة وآؤآر على الإبآآار فى العلاقات الإآآماعفة وآكون فى مسآوى ارآفاع مآانة المسآآفب فى الآسلسل الهرمف الإآآماعف وآفوق مسآوى الآلعفم، وعلى العكس من ذلك فإن الأسئلة الآى آؤآر على أنواع الآآفرات الفعلة فى علاقات القوة بفن الطبقات كلما زاد رفض المآفبفن أكثر كلما كان المءعى علىه أعلى فى الآسلسل الهرمف الإآآماعف، وبكل بساآة وآلال اسآطلاع الرأف العربف العام.

لا الأسئلة الآى آآرآ فى الواقع فآم آنففآ فسفر الإآابات لها بغض النظر عن الإشكالفة الآى آنعكس آقا فى إآابات فئات مآآلفة من المآفبفن وان المآآال المسبآرة هى فكرة آءور لآعطف قائمة بالأسئلة الآى طرآها مؤسساآ المسآ أى المآآال الآى آهم فى المقام الأول أولئك الذفن فرفءون أن فكونوا على علم بوسائل آنظفم أعمالهم السباسة ففآم اسآفبآهم بشكل آفر مآساو من قبل الطبقات الإآآماعفة المآآلفة.

وإذا كانت اسآطلاعات الرأف العام آفهم بشكل سفى آالات الرأف المآآلمة فإن السبب هو وضع مصآنع فآم ففه آسآفل آراء الناس بوساآة صناآفق الإقآراع وفى الأزماآ آآكون آالات الرأف عبر آوففه الشعوب بآراء مآشعبة وآراء مءعومة من قبل مآآموعات سباسة آابعة للنظام بصور فردفة أو فوضوفة وبالآالى فإن الإآآفار بفن الآراء فعنف الإآآفار بفن المآآموعات الآبعة للآاكم، وهذا هو مبدءاً آآفر الآسفسف النآم عن فآوى وامآءاء الأزماآ. وكما إن هناك آراء آشآلت وآشآء وانضطآ بآماعاآ آول النظام فى إشكال واضآة من المصآال المآقاطعة، ولذلك فإن الاسآطلاعات هى لفسآ آراء آقفقفة، وبفانآها ونآآآها لفسآ مقبولة وذلك آفنما فآلب ءوما من المشارآفن ففها أن فآآاروا موقفاً بفن الآراء المصاغة، وما إن فآم ذلك عن طرفق الآمع الإآصائف البسبب للآراء المآآآة آآى فآم بهذه الطرفة إنآآ وإعلان النآآآ والآى هى بآملآها مناففة للواقآ ومناقضة

وشاطبة لحقيقة الرأي العام. وإن حقيقة عزف الشعوب عن التعبير أو عدم الإصرار عليه تتضح عبر حقيقة أن همة الاستعدادات للعديد من الفئات الاجتماعية والإرهاب والإرهاب السياسي المتعمد ازائها يمنعها من الوصول لوضعية طرح الرؤية الصريحة لها أي أنها غير مكتملة وغير متمكنة لكنها تدعي تماسك التعبير وحاجة الاستجابة العامة، وأن الناس الذين ليس لديهم رأي سيختارون في جو من الأزمات وعن طريق الصدفة، لذلك أوقن وأؤكد أن الرأي العربي العام الصريح لا وجود له ومحدد في الكبت الحاد والصمت المفجع والرأي المكبوت حد النهاية.

.....
* الآراء الواردة في المقال قد لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبا المعلوماتية.